الانسان الفلسطيني، عن آمال الفلسطينيين بحد ذاتها كأشياء منفصلة عن عالمنا هذا مستقلة وقائمة بذاتها كوقائع فلسطينية محضة. ثم تبين لي أني أصبحت أرى في فلسطين رمزاً انسانياً متكاملاً. فأنا عندما أكتب عن عائلة فلسطينية، فإنما أكتب في الواقع عن تجربة انسانية. ولا توجد تجربة في العالم غير متمثلة في المأساة الفلسطينية»[٣].

ذلك، يلخص تطور الوعي السياسي لدى غسان كنفاني، والذي نلمس انعكاساته المباشرة في نتاجاته الاخيرة كوعي يفصح عن ذاته بلا مراوغة، باحثاً عن أيسر السبل للتواصل مع جمهور عريض، بما يقتضيه ذلك من تنازلات على صعيد البناء الفني، وتراجع عن النقطة التي وصل إليها الكاتب في روايتيه الاولى والثانية تقنياً وتجريبياً.

لقد شهدت السنوات الاخيرة من حياة الكاتب تحولاً جذرياً في معتقداته وقناعاته السياسية والايديولوجية، وانتقالاً من الفكر القومي إلى الاممي. لكن غسان كنفاني، روائياً لم يكن مشروطاً بفكر القوميين العرب (الحركة التي كان ينتمي إليها) وهو يخلق فنه الروائي؛ إذ أنه تجاوز بهذا الفن المرتكزات الايديولوجية التي كانت تحركه في ممارساته السياسية، واعتنق، بوعي أو بدون وعي، نقيضها الفكري قبل سنوات من تعبيره السياسي عن اعتناق الفكر الجديد.

فقد استبق غسان كنفاني، ككاتب روائي، ذاته، كمناضل سياسي، إلى المواقع الفكرية والسياسية الاكثر تقدماً. وهو لم يكتشف هذا التجاوز إلا في مرحلة متأخرة، وبالتحديد، كما يعبر، بعد أن شاهد فيلماً سينمائياً مأخوذاً عن إحدى رواياته..

«.. وقد شاهدت الفيلم بمنظور جديد، إذ اكتشفت فجأة بأن الحوار بين الابطال وخط تفكيرهم وطبقتهم [الاجتماعية] وطموحاتهم وجذورهم في ذلك الحين كانت تعبر عن مفاهيم متقدمة عن أفكاري السياسية. [إذن] باستطاعتي القول بأن شخصيتي كروائي كانت متطورة أكثر من شخصيتي كسياسي، وليس العكس»[٤].

في السياسة، كان غسان يطمح إلى مجابهة الواقع. اما الرواية فقد كانت لديه أكثر من مجرد المجابهة. فمن خلالها عبّر عن الواقع، وتسرب منه إلى الماضي ليوقظه ويحييه، ثم جابه الحاضر..

فالروائي، كما يرى غسان، كل هذه المعالم مجتمعة... يعبر عن الواقع... ويهرب إلى الماضي... ويجابه الحاضر[٥].

■ ■ ■

أربع روايات، هي التي نشرها غسان كنفاني قبل موته، ترسم بكثافتها الشديدة رحلة الفلسطيني من الفرار إلى المواجهة: